تجليات التأليف العربي في مجال النظرية السوسيولوجية، دراسة في هدي التحليل النقدي للخطاب

Manifestations of Arabic authorship in the field of sociological theory, A study in the guidance of critical analysis of discourse

علي حامد [1] ، عبد الرزاق حدد [2]

جامعة الوادي alihamed7@gmail.com

جامعة قاصدي مرباح ورقلة heded.abderrazak@univ-ouargla.dz

تاريخ الاستقبال: 2023/07/12؛ **تاريخ القبول**: 2024/02/27؛ **تاريخ النشر**: 2024/05/20

ملخص: تسعى هذه المقالة، من خلال مقاربة التحليل النقدي لخطاب النظرية السوسيولوجية الى ابراز أهم المشكلات المعرفية والمنهجية التي تعترض حركية التأليف والبحث العلمي في الساحة العربية في مجال النظرية السوسيولوجية، والتي يلمسها كل مهتم وقارئ للنظرية السوسيولوجية. بالإضافة الى محاولة الوصول الى عدة زوايا مبهمة في سياق الجدل الأيديولوجي الحاصل بين مختلف خطابات النظرية السوسيولوجية وتجاوزا للتعاطي السطحي المألوف وذلك بالإنشغال المباشر للتأليف العربي. حيث يعدو التأليف في مجال النظرية السوسيولوجية، ليس بالأمر السهل، فعلاوة على الرطانة والغموض المفاهيمي، والذي يبدو وكأنه أمر محتوم في هذا المجال، بالإضافة الى التشظي الظاهر الذي عرفته النظرية السوسيولوجية الكلاسيكية، والتغيرات الابستيمولوجية الحاصلة على صعيد تمدد آفاقها، والصيغ التوليفية الحاصلة بين مختلف النظريات التي كانت متباعدة مطلع القرن العشرين.

الكلمات المفتاح: النظرية السوسيولوجية، المشكلات المنهجية، التحليل النقدي للخطاب، السوسيولوجيا العربية.

Abstract: This article seeks, through the approach of critical analysis of the discourse of sociological theory, to highlight the most important epistemological and methodological problems that impede the movement of authorship and scientific research in the Arab arena in the field of sociological theory, which touches every interested and reader of sociological theory. Where more than authorship in the field of sociological theory, it is not an easy matter, in addition to the conceptual jargon and ambiguity, which seems as if it is inevitable in this field, in addition to the apparent fragmentation that the classical sociological theory knew, and the epistemological changes taking place in terms of expanding its horizons, and the synthetic formulas that took place between the various Theories that were divergent early in the twentieth century.

Keywords: Sociological theory, methodological problems, Critical analysis of the discourse, Arabic Sociology.

تمهيد:

يتفق معظم المحللين السوسيولوجيين للمعرفة الإنسانية بصفة عامة، على أن الفكر الإنساني والفكر السوسيولوجي، يتأثر بالظروف الاجتماعية والاقتصادية في مجتمع معين. وما تنطوي عليه هذه الظروف من علاقات اجتماعية جوهرية. مع الاعتبار أن للفكر قدرا نسبي من الاستقلال على تلك الظروف، وذلك في مدى تقدمه أو تأخره على الواقع الاجتماعي، وهذا الاستقلال النسبي محكوم في طبيعته بعوامل موضوعية، تجعل الفكر أكثر توضيحا للواقع من أجل تجاوزه، أو أكثر تزييفا له من أجل المحافظة عليه. من خلال هاته العلاقة بين الفكر والواقع الاجتماعي يمكن أن تساعد في فهم مسارات التأليف والبحث العلمي في مجال النظرية السوسيولوجية في الوطن العربي، جلي بنا أن نرصد تجليات الإطار الاجتماعي والاقتصادي الذي ولد في رحابه التفكير النظري السوسيولوجي العربي الحديث، ومن ثم نتلمس بعض المشكلات الأساسية التي تعيق حركة التأليف والتفكير في مجال النظرية السوسيولوجية في الوطن العربي. تتلخص إشكالية هذه المقالة من خلال مقاربة التحليل النقدي لخطاب النظرية السوسيولوجية في الوطن العربي في توصيف واقع التأليف والتفكير السوسيولوجي في مجال النظرية السوسيولوجية من خلال ثلاث مشكلات كالآتي:

1 –علاقة النظرية السوسيولوجية بالإطار الاجتماعي والاقتصادي (الواقع الاجتماعي العربي) من خلال البحوث والتآليف المقدمة.

2 – تجليات توظيف الأطر النظرية المتعارضة من خلال ما تنتجه من مستويات تفسيرية متعددة ومدى تأثيرها على تشظي وانقسام الواقع الاجتماعي المدروس من خلال البحوث المقدمة.

3– مدى تأثر نتائج البحوث السوسيولوجية العربية من خلال التشظي والانقسام الذي عرفته النظرية السوسيولوجية في الانفصال الواضح بين الطروحات الكلاسيكية والنظريات المعاصرة التي تولدت منها.

ما يمكن ملاحظته أن المشكلات الثلاث أعلاه، لها قاسم مشترك واضح، يتمثل في علاقتها الوطيدة بالواقع الاجتماعي العربي، لذا سنرصد جملة من الملاحظات حول الواقع الاجتماعي العربي وآفاقه المختلفة، التاريخية والاجتماعية والسياسية وغيرها.

أولا: قضية الاستعمار:

لقد تعرض الوطن العربي لحركة استعمارية بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية من طرف الاستعمار الأوروبي، المتمثل في الدول الأوروبية الكبرى، فرنسا، بريطانيا، إيطاليا، تم على أثرها تقسيم الكيان العربي الى دول وكيانات ضعيفة في كل من المشرق والمغرب. لايزال صدى هذه الحركة الاستعمارية وتبعاتها عملا ضروريا لدعم النظام الرأسمالي الأوروبي، وتحريك الصراعات داخل كل قطر أو بين الأقطار، فضلا عن تكريس التخلف والتبعية، ونهب الموارد، وتكبيل الإرادة الشعبية.

وفيما يخص حركة العلم والفكر وما نتج عنها جراء الحركة الاستعمارية، يؤكدها عبد الباسط عبد المعطي، فيقول: " المهم فيما يتعلق بموضوعنا أن الاستعمار حاول طبع العلم والفكر– بجانب أبعاد مجتمعية أخرى– بطابع يخدم مصالحه ويحافظ عليها، بأساليب تراوحت بين استقطاب بعض جماعات البرجوازية، ورشوة بعض المثقفين، واعداد أرضية مصالح مشتركة معهم، وعلى الناحية الأخرى اغلاق كل المنافذ أمام إمكانية بلورة فكر قومي وحدوي بالتحكم في نظم التعليم، والبحث العلمي، والكتابة والنشر، وقبلها الممارسة الديمقراطية" (المعطي، 1981)

ثانيا: طبيعة البناء الاجتماعي العربي:

البناء الاجتماعي هو الأساس في كل فهم وتفسير، وعبر تشكله تاريخيا فقد عرف البناء الاجتماعي العربي أنماطا إنتاجية مشوهة، تراوحت عموما بين نشاطين انتاجيين أساسيين: نشاط زراعي ونشاط آخر رعوي، يجاورهما نشاط تجاري. ونتيجة لتطور العلاقات الإنتاجية فقد شهد كذلك بوجود تكوينات اجتماعية واقتصادية متباينة ومتنوعة، لم تتمكن من تحقيق فرص حقيقية للنمو والتطور.

ثالثا: نمط الملكية السائد في البناء الاجتماعي العربي:

نتيجة لعدم الاستقرار والتشتت لطبيعة العلاقات الإنتاجية السائدة، فقد كان النمط السائد هو الملكية الخاصة، وهذا ما يؤكده Good, W فيقول: " فرغم تنوع العلاقات الإنتاجية، ونمو النشاط التجاري فقد اعتمدت في اجمالها على الملكية الخاصة التي رغم وجودها لم تتطور الى رأسمالية بالمعنى الذي عرفته أوروبا. وقد ساعد على هذا خصوصية الملكية الخاصة التي كانت لفترات طويلة ملكية ‹‹ انتفاع ›› يهبها الخليفة أو الحاكم أو الوالي لبعض الفئات، والتي تعود للدولة مرة ثانية، مما صاحبه اهدار المنتفع لعائد انتاجها دون تطوير يذكر للفن الإنتاجي"(Good, 1959) . فأنماط التشتيت والتفتيت بين قطاعات بناء المجتمع العربي وكذلك التشويه المستمر كان السمة البارزة التي طبعت ملامح الأنماط الإنتاجية. ورغم بعض التحولات الثورية أو ما يشابهها، أضافت ارهاصات وآلام أخرى لم تكن في المحصلة، لا هي بالرأسمالية بالمعنى المعروف، ولا هي كذلك بالاشتراكية بالمعنى المفهوم، بل كانت إصلاحات وصفت في بعض الأحيان بتطور لا رأسمالي وأحيانا برأسمالية الدولة.

هذا التشويه والتمزيق والتشتت الحاصل على صعيد البناء الاجتماعي العربي، وكذلك السيطرة الاستعمارية بتفاعلهما أنتجا ظواهر أخرى، كالتبعية وانحصار الديمقراطية أو انعدامها أحيانا، وازدواجية التشكيلات، أنتجت أنماطا من الفكر والعلم احتوت الموقف ونقيضه، واحتوت كذلك مساندة الاستعمار ومناوأته، واحتوت المحافظة والتجديد، والسير في اتجاه مصالح الجماهير وضدهم.

1 – علاقة النظرية السوسيولوجية بالإطار الاجتماعي والاقتصادي (الواقع الاجتماعي العربي) من خلال البحوث والتآليف المقدمة:

إن النظرية السوسيولوجية في طبيعتها تتشكل من أطر نظرية مجردة ومتعالية من ديناميات الحياة الاجتماعية وخبراتها المباشرة، وحتى بعيدة عن الأحداث التاريخية. فأحد صفات البحث الاجتماعي الناجح هو الذي يستطيع أن يختبر بصدق الواقع الاجتماعي المعاش من خلال المقولات التجريدية للنظرية السوسيولوجية المعتمدة في البحث. ومعظم البحوث العربية في هذا الاطار تعاني بوضوح من خلل عدم تجلي والتماس اختبار المقولات التجريدية للنظرية السوسيولوجية للواقع الاجتماعي الذي تدرسه، وهذا ما يؤكده روث والاس، فيقول: " تظهر هذه الإشكالية بوضوح تام في مؤلفات النظرية العربية، وتعبر عنها البحوث الامبريقية بأصدق تعبير، إذ غالبا ما تستخدم النظرية في البحث دون ادراك المقصود منها، أو إذا كان ادراك المقصود ميسرا، يكون التوظيف عصيا، ولذلك تندرج النظرية ضمن الاطار النظري، كأحد الإجراءات المنهجية الشكلية، التي لو أزيلت من البحث فإنها لا تقدم ولا تؤخر في محتواها المعرفي" (روث والاس، 2012).

مما لا شك في ذلك، فإن هذه الإشكالية تكرس حالة من الانفصال بين الاعتراف بأهمية النظرية وضرورتها في بناء العلم من ناحية، وإبراز الجوانب التطبيقية وكيفية الاستفادة منها في البحث الامبريقي من ناحية أخرى. كما أن هذه الإشكالية خلفت على مستوى النتائج، أن بعض الجهود التقويمية سارت في طريق السرد التاريخي للجوانب المدروسة للواقع الاجتماعي، وليست بذلك ثوب تاريخانية العلم الاجتماعي بدل الاهتمام بجوانب النظرية السوسيولوجية، كما يقول عبد الباسط عبد المعطي: " من خلال انطباعات الكاتب، وتجربته ومراميه الشخصية على هذا التاريخ، والذي مزج في أحايين محدودة بتأويلات خاصة، أو ملاحظات حول أوضاع العلم الاجتماعي في بعض الأقطار" (المعطي، 1981).

والواضح أن إشكالية علاقة تطبيق النظرية السوسيولوجية في بحث جوانب الواقع الاجتماعي العربي، وفي الغياب الواضح للواقعية، فإن أغلب البحوث طغت عليها الذاتية وغابت الموضوعية في النتائج الحاصلة. وما يمكن ملاحظته كذلك: " عدم وجود عمل حول نظرية علمية واضحة المعالم، إلا رسالة واحدة توجهت نحو الوظيفية، وأخرى نحو المادية التاريخية" (المعطي، 1981).

وفي معرض تأكيد فقدان الصلة بين التنظير(النظرية) والعمل الميداني في البحوث العربية، تذكر نادية أبو زهرة، في سياق تحليلها للكتابات الانثروبولوجية العربية: " أن أبرز ما يلاحظ على هذه الدراسات هو فقدان الصلة بين التنظير والعمل الميداني، والاهتمام الزائد بالوصف، الذي يقدر عليه حتى غير الباحثين، والهروب عن التحليل والتفسير السوسيولوجيين"(Zahra, 2008) .

رغم جهود الباحثين العرب في مختلف الأقطار العربية، خاصة في انجاز البحوث ذات الطابع الامبريقي، وذلك منذ بدايات نشأة علم الاجتماع في الوطن العربي، فإن هذه البحوث كانت عبارة على دراسات ميدانية لم يتبلور خلالها تحديد موقف الكاتب وذلك لغياب الموقف النظري أو الخلفية النظرية التي تستند عليها، حيث توضح نجلاء عبد الحميد راتب: " منذ سيطرة الاتجاه الامبريقي على دراسات المشتغلين بعلم الاجتماع، في مصر، كانت البحوث الاجتماعية في معظمها– إن لم نقل كلها– مجرد دراسات ميدانية غير موجهة بموقف نظري واضح ومتبلور يحدد موقف الباحث الاجتماعي المصري من قضايا مجتمعه وواقع هذا المجتمع وخصوصية مشكلاته وواقعه الاجتماعي والسياسي" (راتب، 2012).

ولما طغت إشكالية علاقة النظرية السوسيولوجية بالواقع الاجتماعي العربي على السطح، وأصبحت مصدر قلق لدى الباحثين والمهتمين بالفكر السوسيولوجي. أسس الأستاذ الدكتور سمير نعيم أحمد مدرسة عين شمس في علم الاجتماع. وحدد لها أركان رئيسية، ومن بين الأركان الذي حددها لهذه المدرسة، تناول قضية وأهمية الخلفية السوسيولوجية للبحث الاجتماعي، تذكر نجلاء عبد الحميد راتب ذلك فتقول: " يقوم الركن الأول منها على قاعدة علمية أساسية فحواها، أن أي باحث في أي علم من العلوم لا غنى له عن نظرية توجهه في جمعه للوقائع المتعلقة بالظاهرة التي يريد دراستها أو في اختياره للفروض التي يريد أن يختبر صدقها وفي اختياره للمنهج والأدوات التي سيستخدمها في دراسته. وأنه بدون هذه النظرية يتخبط في جمع معلوماته بحيث تأتي غير مترابطة ثم يعجز في النهاية عن إضفاء معنى عليها أو تفسيرها" (راتب، 2012).

لم يستثنى كذلك من هاته الإشكالية، حتى على مستوى الإنتاج العلمي الأكاديمي، أي الرسائل العلمية الجامعية(الدكتوراه والماجيستير)، وقد تبدت إشكالية علاقة الخلفية النظرية بالبحوث السوسيولوجية هشة، وغير متصلة في أحايين كثيرة. يقول أحمد موسى بدوي في هذا الاطار: " ظهر أن التوجهات النظرية الغالبة على بحوث الماجيستير والدكتوراه هي على التوالي: الوظيفية، والوضعية، والمادية التاريخية، والاتجاه النقدي، واستطاعت هذه الدراسات أن تكشف عن نموذج نظري سلبي ظاهر في هذه البحوث، وهو أسلوب التلقيط النظري، الذي يشير الى اتجاه بعض البحوث الى نزع مقولات نظرية من سياقات مختلفة، وعرضها كإطار نظري دون تنبه الى ضرورة التماسك المنطقي لما تم تجميعه من مقولات" (بدوي، 2009).

والغالب أن معظم البحوث السوسيولوجية، انحصرت في إطار تاريخانية العلم الاجتماعي، ولم تتناول من الواقع الاجتماعي إلا قضايا محددة وجزئية متعلقة بالتنمية أو التربية أو الجريمة وغيرها، بأساليب تفسيرية محدودة في غياب الارتكاز الواضح على أطر نظرية(سوسيولوجية)، وفي حدود الاستشهاد لا أكثر.

2– تجليات توظيف الأطر النظرية المتعارضة من خلال ما تنتجه من مستويات تفسيرية متعددة ومدى تأثيرها على تشظي وانقسام الواقع الاجتماعي المدروس من خلال نتائج البحوث المقدمة.

لقد جاء علم الاجتماع كعلم يهدف الى اكتشاف المعطيات الجوهرية في السلوك الاجتماعي واكتشاف العلاقات القائمة بين تلك المعطيات ومن ثم تفسير تلك الوقائع عن طريق كشف القوانين القائمة بينها، إلا أن هذا الهدف العام للعلم الاجتماعي، وفي ظل الطبيعة التطورية لعلم الاجتماع، سوف لن يستمر بالمعطى الذي حدد له، فالأهداف تتغير وسعة التفسير تتنوع في ظل طبيعة العلم الاجتماعي. فقد عرف علم الاجتماع الطبيعة المحافظة والراديكالية والنقدية والمثالية وغيرها.

والبحث كنتائج لتطبيق نظريات العلم، سوف تتأثر نتائجه في ضوء هذه التطورات، وهذا ما حدث للساحة الفكرية العربية، كغيرها من الجهات الأخرى. يجدر بنا في هذا المقام أن نقدم توصيفا موجزا لحالة علم الاجتماع، ومن ثم حالة النظرية السوسيولوجية على صعيد التغيرات السياسية والاجتماعية والثقافية، وطبيعة نتائج البحوث المنتجة في ظل التشظي الذي عرفته النظرية السوسيولوجية.

نشأ علم الاجتماع في أوروبا عقب الثورتين الفرنسية والصناعية كاستجابة لكشف وتفسير المتغيرات العميقة التي حدثت والتي هزت أركان المجتمع التقليدي. ملامسا للواقع الثري بالتغيرات، واهتدى في ذلك بمجموعة من الأفكار والمبادئ والمفاهيم، يختزلها أحمد موسى بدوي بقوله:" هذه المفاهيم تعتبر حصيلة لأربع تيارات فكرية واضحة المعالم في ذلك الوقت، وهي تيارات تستجيب بشكل أو بآخر للثورتين، وهذه التيارات هي العقلانية، والنزعة الإنسانية، والوضعية، والأيديولوجيا، والمتمثلة في جذور الاتجاهات الليبرالية والراديكالية والمحافظة" (بدوي، 2009).

أما نشأة علم الاجتماع في المجتمعات الأخرى، المستورد إليها ومنها المجتمع العربي، فإنها نشأة علمية لا تلامس الواقع الاجتماعي في بداية التكوين. وما يثبت ذلك ما أورده أحمد موسى بدوي: " فمرحلة التكوين أو الولادة تكون تقليدية، وفيها يتم التعرف الى هذا العلم وأهدافه من مصادره الأصلية المنتجة له، ثم تلي ذلك مرحلة نقدية يتفاعل فيها المعطى التقليدي مع الواقع، ثم يحدث تطور لاحق، وذلك بإنتاج علم أصيل مرتبط بالبنية الاجتماعية والواقع الاجتماعي والتاريخي لهذا المجتمع" (بدوي، 2009).

وحتى تتضح أكثر إشكالية واقع البحوث والتآليف في إطار النظرية السوسيولوجية، في ظل التطورات المعاصرة التي عرفتها النظرية السوسيولوجية، يمكن أن نحدد أهم ملامح التطور والتشظي الذي عرفته النظرية السوسيولوجية، من خلال بعض المداخل الرئيسية لها.

- **المدخل الأيديولوجي:**

خلال ستينيات القرن الماضي هيمن تيار تنظيري في علم الاجتماع متخذا من الأيديولوجيا بوصفها جماع أفكار وقيم معبرة عن المصالح المسيطرة متغيرا مستقلا، أثر في نشأة نظريات بأكملها في علم الاجتماع، يقول عبد الباسط عبد المعطي: " كان الهدف منه توظيف النظرية السوسيولوجية، وما ينتج خلالها من بحوث أساسا لتبرير مصالح بعينها والدفاع عنها، وكان لمنظري الرأسمالية دور بارز في ذلك" (المعطي، 1981).

وصل من خلالها حال النظرية السوسيولوجية الى تحويلها الى عدة أفكار جزئية متخصصة في كل جزئية من جزئيات الحياة الاجتماعية وتقريبها من علم النفس الاجتماعي. " فصار علم الاجتماع علما للدوافع والثقافة والقيم والاتجاهات وما الى ذلك، وفي الوقت نفسه إغفال الأبعاد الكلية والدينامية، التي تعد من اختصاص علم الاجتماع، والتي تميزه موضوعا واهتماما عن غيره من علوم الانسان. والمهم في الأمر أن مدخل تحليل نشأة النظريات السوسيولوجية وتطورها في ظل الأيديولوجية أفاد في كشف النقاب عن كثير من المضامين المتوارية وراء هذه النظريات خاصة أعمال بعض الرواد من أمثال دوركايم وفيبر، وبعض النظريات كالوظيفية والوضعية الجديدة" (Good، 1959).

- **مدخل سوسيولوجية علم الاجتماع:**

هذا المدخل يتفق بمدى تأثير الأيديولوجيا في علم الاجتماع، ويضيف الى ذلك ضرورة تطبيق قواعد البحث في علم الاجتماع على علم الاجتماع نفسه، بوصفه نسقا علميا ومنتجا إنسانيا، وذلك من أجل فهم طبيعة علم الاجتماع كنسق علمي، وهو ما عبر عنه عبد الباسط عبد المعطي: " من أهم هذه المرتكزات أنه لفهم أي نسق علمي يجب التمييز بين مراحل نموه وتطوره، مع وضع الافتراضات التي تكمن وراء كل مرحلة في الحسبان" (المعطي، 1981).

ففي إطار مبدأ سوسيولوجية علم الاجتماع، يعد البعد التاريخي لتتبع تطور النظرية السوسيولوجية وتغييرها هاما في معرفة مشكلات العلم في كل حقبة، ومعرفة أساليب تجاوز هذه المشكلات. "وهذا ما يقتضي بجانب الأفق التاريخي وضع الإطار السياسي الشامل كإطار للتفسير" (جلبي، 1975).

- **مدخل علم اجتماع المعرفة:**

هذا المدخل يستلهم مرتكزات مدخل سوسيولوجية علم الاجتماع، مع التركيز على تطبيق قواعد علم اجتماع المعرفة على نشأة وتطور النظرية السوسيولوجية واتجاهاتها، وأفاد هذا المدخل في فهم مدى تباين العلم الاجتماعي موضوعا وأهدافا بتباين الظروف التاريخية والاجتماعية التي عايشها العلماء والباحثون في هذا المجتمع أو ذاك.

هذه المداخل المذكورة أعلاه، يلخصها عبد الباسط عبد المعطي في التأكيد: " على أن فهم أوضاع النظرية السوسيولوجية من خلال علم الاجتماع في الوطن العربي في حاجة الى تحليل تاريخي ومعاصر لهذه الأوضاع، وضرورة ربطها بالإطار المجتمعي الذي أحاط بها، وأنه لابد من منطلقات أساسية تقود عمليات التحليل والفهم، ولو من خلال قضايا عامة، وإلا فقد الباحث طريقه وأحاطت به عدم وضوح الرؤية" (المعطي، 1981).

إن ما يتجلى بوضوح على صعيد نتائج البحوث ومدى علاقتها بالإطار النظري (النظرية السوسيولوجية)، مدى تعارض الأطر النظرية، سواء الانطلاق من الفعل الى البنية أو العكس، أو الاتجاه من المستوى التحليلي بعيد المدى الى المستوى التحليلي قصير المدى أو العكس. وهو ما يشير إليه روث والاس: " ليس هذا فحسب، بل يظهر في بعض المؤلفات تقسيم الواقع الاجتماعي الى مناطق محدودة، لا ينظر إليها إلا من قبل منظور أو منظورات بعينها، وبذلك جزئت النظرية بصورة مفتعلة وجزئت معها الحياة الاجتماعية" (روث والاس، 2012).

3– مدى تأثر نتائج البحوث السوسيولوجية العربية، من خلال التشظي والانقسام الذي عرفته النظرية الاجتماعية، وذلك من خلال الانفصال الواضح بين الطروحات الكلاسيكية والمعاصرة التي تولدت منها.

لا يختلف اثنان فيما وصلت إليه النظرية السوسيولوجية م تشظي وانقسام، من خلال مسيرة تطورها، وذلك لما وصلت إليه من انفصال يكون أحيانا شبه تام عن الأطر النظرية الكلاسيكية، فالتماهي الحاصل على مستوى التنظير السوسيولوجي ولد ذوبان للحدود الكلاسيكية، خاصة بين النظرية الماركسية والوظيفية، وأنتجت عدة محاولات للتوليف بينهما، على غرار الماركسية المحدثة والوظيفية الجديدة، والاعتراف ببعض المفاهيم لكل واحد منهم للآخر.

إن هذا الانفصال الواضح خلق فضاء من الارتباك سيما على مستوى التصنيف، فمثلا اعتبار ماكس فيبر منظرا صراعيا لدى البعض، بينما البعض الآخر يعتبره منظرا وظيفيا، وذلك لأن كلا من نظرية الصراع والنظرية الوظيفية قامت بتوظيف أفكار ماكس فيبر وطروحاته. بمعنى آخر: " إن انفصال النظريات المعاصرة عن جذورها الكلاسيكية، قد فاقم (على الأقل في أذهان المؤلفين) من إشكالية التعارض والانقسام" (روث والاس، 2012). هذا الاشكال المطروح حتما، ألقى بضلاله على نتائج البحوث السوسيولوجية داخل الإطار العربي، وخلق فجوة واضحة في العلاقة بين الإطار النظري (النظرية) ونتائج البحوث وموقع (ذاتية الباحث).

يقول أ. ليفين: " ويلاحظ أيضا أن نوعية المفكرين الاجتماعيين، وانتماءاتهم الاجتماعية، أثرت في نمط الفكر الاجتماعي وتوجهاته. فهم وإن كانوا أكثر ميلا الى الليبرالية، فقد عبروا عن مصالح البرجوازية وجعلوا من العلم سلعة تباع من خلال المؤسسات التعليمية والعلمية، لقد طالب معظمهم بالمساواة في الحقوق والواجبات السياسية، إلا أن أحدا منهم لم يطالب بالمساواة الاجتماعية" (ليفين، 1978).

إن ما يعزز اثبات هذه الإشكالية، هو ما ذهب إليه أحمد موسى بدوي، خلال تعليقه على بعض مبررات اختيار الموضوع وصياغة مشكلة البحث، فيقول: " تعرض الدراسة في مقدمة التقرير مبررات نظرية وتطبيقية كافية لإجراء البحث، بالتركيز على التأثير الأيديولوجي في الإنتاج العلمي، وتعرض لأشكال هذا التأثير من كافة الوجوه، فالأيديولوجيا تلعب دورا قويا في تشكيل المنتج العلمي، والأيديولوجيا الأخلاقية تؤثر كذلك على نتائج البحث النفسي الاجتماعي. والأيديولوجيا أدت الى انفصال الباحثين عن الثقافات القائمة، وبالتالي وجود فجوة بين النظرية والتطبيق" (بدوي، 2009).

إن العلم نشاط هادف وخلاق، لا يأتي من الفراغ، بل هو نتاج لمجموع الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تتحدد بكل مرحلة تاريخية من مراحل تطور المجتمع المعين، فالجهود السوسيولوجية في الوطن العربي ليست استثناء لهذا النشاط. " فهو تأثر ولا يزال، سلبا أو إيجابا بنمط العلاقات السائدة في المجتمع، بين الجماعات وبين حائزي القوة والخاضعين لها، وبين المجتمع العربي بكل مكوناته وبين المجتمع الدولي بتناقضاته وما تسيطر عليه من قوى اقتصادية وسياسية" (المعطي، 1981).

ومن جملة ما تجلى لنا في تعامل الباحثين العرب من خلال تعاملهم مع النظريات السوسيولوجية، اعتبارها لدى البعض – أي النظرية السوسيولوجية– أنها نصوص مقدسة، تتسم بالثبات والصدق، وبالتالي فإن توظيفهم لها لا يعدو إلا مجرد الاسترشاد بإحدى هاته النظريات. يضاف الى ذلك ملاحظة أخرى، عبر عنها أحمد موسى بدوي بقوله: " أن الباحث لا يقدم على الإنتاج النظري، برغم ادعاءات كثير من بحوث العمل على انتاج تصور ملائم للواقع الاجتماعي" (بدوي، 2009).

هناك بعض الباحثين ومن خلال تأليفهم وانتاجهم العلمي، لا يأخذون بعين الاعتبار التطور الحاصل على صعيد النظرية السوسيولوجية، فيتعاملون مع النظريات السوسيولوجية الكلاسيكية المؤسسة لعلم الاجتماع بوصفها نظريات معاصرة، وهذا مرده ربما الى رأس المال العلمي المكتسب

لدى الباحث (الخبرة العلمية)، وكذلك الى طبيعة وخصائص المراجع والدراسات السابقة المستخدمة. فمن المتفق عليه في أي دراسة او بحث ذات طابع سوسيولوجي، هي سهولة تحديد هويته النظرية، فيتسم هذا البحث بالطابع الوظيفي إذا كانت خلفيته النظرية وظيفية، وذاك البحث ذي طابع مادي تاريخي(الماركسية) إذا كانت خلفيته النظرية الماركسية، وهناك بحث آخر يحاول أن يكون طابعه توليفي إذا أخذ بالنظريتين، وهناك بحث يرفض كل تنظير، ويفضل الواقع منظورا أن وصف الوقائع أبلغ من كل تنظير، على المستوى غير العربي. أما على مستوى الدراسات العربية فإن الدهشة تغلف الفكر ويساور القارئ الشك في معرفة دور النظرية في ذلك البحث، وحتى وإن بدا ملمح وجود خلفية نظرية فإن أغلب الدراسات العربية بحثا وتأليفا تنتمي الى الاتجاهات المحافظة. وهذا ما يؤكده تصريح عبد الباسط عبد المعطي حول هذه الملاحظة، فيقول: " وبصفة عامة، ورغم هذه الملاحظة، فإن العدد الأكثر من المشتغلين بالسوسيولوجيا في الوطن العربي ينتمي بحثا وتأليفا الى الاتجاهات المحافظة، سواء كانت وظيفية تقليدية أو أمبريقية تجزيئية، يليهم أصحاب التلقيط النظري من هنا وهناك، وبعد ذلك وأخيرا أنصار الاتجاهات النقدية والتجديدية" (المعطي، 1981).

الخلاصة:

يتضح مما تقدم أعلاه، وعلى ضوء ما توفر لدينا من معلومات حول تجليات التأليف العربي في مجال النظرية السوسيولوجية، أن البحوث التي أنجزت في مختلف الأقطار العربية وخاصة في كل من مصر والعراق، تأثرت مباشرة بظروف النظرية السوسيولوجية الغربية وكان اهتمامها بالواقع الاجتماعي العربي نسبيا قليل، إلا في بعض الجوانب الديناميكية كقضايا التنمية والإجرام وغيرها.

أما على مستوى الدراسات ذات الطابع السوسيولوجي والتي تتطلب خلفية نظرية تسندها، فقد كان حضور النظرية السوسيولوجية لافتا، إلا أن العلاقة بين الموضوع المدروس والنظرية السوسيولوجية المختارة في معظم البحوث كان شكليا، لا يتعدى مجرد الاستشهاد الشكلي لمتطلبات منهجية البحث السوسيولوجي. أو أن العلاقة تنحصر في جانب ضيق من النظرية ولا تغطي كل الجوانب. ففي الجدول رقم 1 (انظر الملاحق)، يتضح أنه من مجموع 131 بحث سوسيولوجي وانثروبولوجي أكثر من 90 بحث بدون خلفية سوسيولوجية تذكر (نظرية سوسيولوجية)، وأن أكثر من 30 بحث كانت خلفيتها بدون وعي وبدون تدقيق واعتمدت على مفاهيم متعارضة لا تفي بالغرض المطلوب.

رغم ما يوضحه الجدول رقم 2(انظر الملاحق) من غلبة الموقف التلفيقي والتلقيطي للخلفية النظرية للدراسات والبحوث السوسيولوجية التي عرضت، وحتى وإن ذكرت فقد كانت عديمة اللون والطعم ولم يكن لها أثر ملموس على نتائج الدراسات، إلا أن ذلك لا ينفي تبلور بعض من مواقف نظرية، وظيفية، أو مادية تاريخية، وهذه المواقف وما تنتجها من دراسات وبحوث قادرة من خلال تنافسها وحوارها المستمر على خلق مواقف سوسيولوجية نابعة لا تابعة، تكرس الخصوصية العربية، ويمكن أن تسهم في مزيد من الفهم وتبلور أكثر للمواقف النظرية من جانب، ومراجعة كثير من القوالب التقليدية للنظرية السوسيولوجية من جانب آخر.

التوصيات:

- اللإهتمام أكثر بحركية التأليف العربي في مجال النظرية السوسيولوجية وتشجيعه لإثراء المكتبة العربية وللحد من الإعتماد المباشر على الترجمة الفورية والجاهزة للمؤلفات الغربية.
- مضاعفة النشاط العلمي في مجال النظرية السيوسيولوجية وذلك بتوسيع نشاط المؤتمرات والملتقيات والندوات العلمية.
- مراجعة المناهج الجامعية وإعادة صياغة تدريس النظرية السيولوجية وفق المقاربات النقدية المعاصرة والإبتعاد عن التناول التقليدي المألوف.
- الاهتمام أكثر بقضايا البحث العلمي في إطار النظرية السوسيولوجية وضرورة ربطه بالواقع العربي.
- ضرورة استحداث أدوات بحثية في المجال السوسيولوجي تتطابق مع مناهج البحث العلمي في إطار الواقع العربي قادرة على إنتاج معرفة مبنية على رؤية نقدية تساهم في حل المشكلات بصورة حقيقية.

الاحالات والمراجع:

1 USA: .،Arabic Anthropological Wiriting in Wuwit and Arabic Traditions of Scholarship .(2008) .Nadia abu Zahra .Anthropology and Sociology, University of British Colombia Departement of

. 2 London: McGraw Hill Book Company, Inc .Methods in Social Research .(1959) .W: Hatt, P Good

3 أ. ليفين. (1978). الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في لبنان وسوريا ومصر. (بشير السباعي، المترجمون) بيروت: دار بن خلدون.

4 أحمد موسى بدوي. (2009). الابعاد الاجتماعية لإنتاج واكتساب المعرفة، حالة علم الاجتماع في الجامعات المصرية. القاهرة: مركز دراسات الوحدة العربية.

5 أليسون وولف روث والاس. (2012). النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، تمدد آفاق النظرية الكلاسيكية. (عبد الكريم الحوراني، المترجمون) عمان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع.

6 عبد الباسط عبد المعطي. (اغسطس، 1981). اتجاهات نظرية في علم الاجتماع. عالم المعرفة، 44، صفحة .169

7 علي جلبي. (1975). النظرية واتجاهات تطورها في علم الاجتماع. القاهرة: دار المعارف.

8 نجلاء عبد الحميد راتب. (2012). أهمية التفكير العلمي والرؤية النقدية في تكوين الباحث الاجتماعي. تأليف فرغلي هارون، المدرسة النقدية في علم الاجتماع المصري (المجلد الاولى، صفحة 34). القاهرة: دار انسانيات للنشر والتوزيع.

ملاحق:

جدول رقم 1: يوضح علاقة بعض الدراسات العربية بالخلفية النظرية (النظرية السوسيولوجية).

الرقم	عدد الدراسات	الميدان	الخلفية النظرية	الملاحظات
01	01	علم الاجتماع والانثروبولوجيا	المادية التاريخية	
02	06	علم الاجتماع والانثروبولوجيا	البنائية الوظيفية	
03	33	علم الاجتماع والانثروبولوجيا	التوليف بين الماركسية والوظيفية	بدون وعي وبدون تدقيق والاعتماد على مفاهيم متعارضة لا تفي بالغرض المطلوب
04	91	علم الاجتماع والانثروبولوجيا	بدون خلفية نظرية محددة	
المجموع	131			

المصدر: جدول يلخص مجموعة ملاحظات قدمها عبد الباسط عبد المعطي في كتاب اتجاهات نظرية في علم الاجتماع ص ص من 181 الى 185.

جدول رقم 2: يوضح تأثر بعض البحوث العربية بمدى تطور وتشظي النظرية السوسيولوجية.

الرقم	الدراسة أو التأليف السوسيولوجي	المؤلف	الخلفية السوسيولوجية	البلد	السنة
01	مشكلة المجتمع العربي المعاصر	عبد الجبار عريم	النظرية الماركسية	العراق	1969
02	العلوم الاجتماعية، طبيعتها، ميادينها، طرائق البحث فيها	صفوح الأخرس	عدم وضوح الخلفية النظرية	سوريا	1972
03	القرابة والمهنة كتصورات لتحليل المجتمع الأردني	أحمد بوهلال	المداخل الوضعية المحدثة	الأردن	1975
04	التحديث في المجتمع القطري	جهينة سلطان	اضطراب الموقف النظري وعدم وضوحه	قطر	1979

المصدر: عبد الباسط عبد المعطي: اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، صفحة من 181 الى 185.